المؤرخ العربي الكبير
نقولا زيادة
في ذمة الله

أ.د. يوسف محمد عبدالله

في ٢٠٠٦/٧/٢٨ رحل عن الدنيا المؤرخ الكبير نقولا بن عبده عبدا لله بن حنا بن خليل زيادة المشهور باسم (نقولا زيادة) عن عمر يقارب المائة حيث ولد في ١٩٠٧/١٢/٢ بدمشق من أبوين فلسطينيين أصلهما من الناصرة. مات نقولا زيادة هو يحمل الجنسية اللبنانية ويحتل منصب أستاذ شرف بالجامعة الأمريكية في بيروت ومسكنه في حارة قريطم في بيروت حيث تسكن عائلة الشهيد الحريري رئيس وزراء لبنان السابق.

مات نقولا زيادة وأهله وأصدقاؤه ومحبوه يعدون احتفالاً خاصاً له بمناسبة بلوغه المائة عام بعد أشهر، وكان يبدو عليه كعادته الصحة والرغبة والتصميم لحضور هذه المناسبة المئوية ، ولعل الفتى الذي تختزن في حناياه تاريخ امة العرب وهو يسابق الزمن لبلوغ المائة عجز عن وصول الغاية بعد أن أضناه المسير و وحمل " الشعرة التي قصمت ظهر البعير"، بدءاً من دمشق والناصرة وعكا والقدس و حتى بيروت، وقد عاش في هذه المدن جميعها وتضمخ بطيب ترابها ونسائم ياسمينها.

مائة سنة إلا بضعة أشهر عاشها نقولا بالطول كما عاشها بالعرض. فتى عربي من فلسطين ولد في دمشق بالصدفة لان والده كان يعمل فيها، ولكنه عاد لاحقاً إلى فلسطين ليدرس في الكلية العربية بالقدس وليتخرج لاحقا بدرجة الدكتوراه في التاريخ الإسلامي من جامعة لندن وكان موضوع رسالته الحياة المدنية في بلاد الشام منذ ١٢٠٠-١٤٠٠ ميلادية.

عزيزي القارئ .. صدقني أنني لست ممن ينسب نفسه ادعاءً إلى الإحداث ويجعل من نفسه محورا لها أو له صله بها ولكنني أحاول أن لا اغفل صلتي با لأحداث الصغيرة والكبيرة التي شاءت الأقدار أن أكون على علاقة بها بطريقة أو أخري . وتشاء الأقدار أن أكون تلميذاً للبروفسور نقولا زيادة في الجامعة الأمريكية في بيروت بين عامي ١٩٦٣-١٩٦٤ وقد درسني حينها التاريخ الأوربي، وقبل ذلك بل قبل أن ادخل الجامعة كنت معجبا بمقالاته التاريخية التي كان ينشرها في مجلة

الهلال المصرية، كما تشاء الصدف أيضا أن أكون تلميذاً للشاعر الكبير الدكتور خليل حاوي خلال دراستي في الجامعة الأمريكية في بيروت أيضا للغة العربية والأدب العربي في الفترة نفسها، والذي رحل عمداً عن هذه الدنيا عندما غزا الصهاينة ارض لبنان في يونيو ١٩٨٢ وذلك لتنبيه بني قومه بخطر المشروع الصهيوني وإيقاظهم من غفلتهم الدائمة.

مات خليل حاوي في خضم الغزو الصهيوني على لبنان يونيو ١٩٨٢ ومات نقولا زيادة في غمرة العدوان الصهيوني على لبنان في يوليو ٢٠٠٦. كان خليل حاوي شاهداً عليهم وعلى عدوانهم وهو العربي المسيحي الذي قال بأعلى صوته:

يعبرون الجسر في الصبح خفافا أضلعي امتدت لهم جسرا وطيد

وهي نبؤة شعرية عن المقاومة و تفضح المؤامرة الاسرئيلية الذي لم يكن لها من هم في عدوان ٢٠٠٦ إلا تحطيم الجسور.

لا خلاف أن في لبنان طائفية فهناك مسلمون ومسيحيون وهناك مذاهب مارونية و أرثوذوكسية وشيعة و دروز وسنة وغير ذلك ولكن يبدو أن الأحداث عبر قرن من الزمان عاشها المؤرخ الكبير نقولا بن عبده بن عبدا لله قد أثبتت أن هذا البلد أكثر بلاد العرب تمسكاً بعروبته وأشدها صلابة في ممانعة الوجود الصهيوني الغاصب.

وفي كتابه "**أيامي**" وهو من جزئيين كبيرين مطبوعين في لندن ويحتويان ذكرياته التي كتبها من الذاكرة لوحات تاريخية حية كتبها مؤرخ كبير عن بلده وعلى مساعي الصهاينة لإنشاء وطن قومي لهم في فلسطين، وعلى جهاد الفلسطينيين لإحباط مساعي هؤلاء المستوطنين، فكتب متسائلا: "وبعد، فلماذا ندرس التاريخ؟ "، قيل لنا إن في التاريخ عبرة وأننا نتعلم من التاريخ درسا تمكننا من تجنب الزلل وتنكب الخطل. لكن ما تعلمته أنا في إمعاني في درس التاريخ: تعليما وكتابة ومناقشة هو أن هذا الشئ فيه خداع النفس الكثير. ولو أن في الأمر صحة لكان العالم تجنب الأخطاء التي يرتكبها قرنا بعد قرن وجيلا بعد جيل وسنة بعد سنة وحتى يوما بعد يوم، وأنا لا أريد أن أدلل على ذلك بسوق المثل تلو المثل. ولكنني أود أن أعود إلى العهد القديم المقدس لأذكركم بعبارة ما أكثر ما ترد فيه وهي:" وعاد بنو إسرائيل وصنعوا الشر في عين الرب، فسلط عليهم أصناف العقاب ولعلهم يرعوون. و لكن لا يكاد يعودون إلى صوابهم فيغفر الله لهم، حتى يرجعوا إلى صنع الشر في عين الرب. فإذا كنا نجد في درس التاريخ عبرة، " فهذه هي العبرة وان كانت بالنسبة لنا معشر العرب عبرة سلبية.

و ذكر الدكتور زيادة في كتاب صغير الحجم اسمه (إيقاع على أوتار الزمن) صدر عام ٢٠٠٢ ضمن سلسلة كتاب العربي، تضمن مقالاته في المجلة الكويتية العريقة (العربي) خلال نصف قرن. ويكتسب كتاب زيادة أهميته ويتحدث عن جانب مهم فيقول: "اكتشفت أن في التطور التاريخي شيئاً أسميه (الجيولوجية الاجتماعية)،

أي أن الشعب الذي وجد في مكان وكانت له مآثر وإنجازات (مهما كان نوعها) لا تذهب مع الريح لمجرد أن يهزم هذا الشعب ويستولي شعب آخر على بلاده، أن الكثير من الإنجازات يظل في المجتمع الجديد وينتقل إليه اجتماعياً كما تنتقل شعيرات النبات من طبقة من الأرض إلى أخرى". و يذكر في موضع آخر من الكتاب أنه وضع حتى ذلك الوقت "أربعين كتاباً (منها اثنان بالمشاركة) بالعربية وستة كتب بالإنجليزية، وترجمت ستة كتب عن الإنجليزية، وكتاباً عن الألمانية. و هي كلها تمت إلى التاريخ الإسلامي بصلة، ولست أدعي أنها كلها بلغت الغاية، فقد كنت أتعلم من أخطائي باستمرار"، بالإضافة إلى العديد من المقالات والأحاديث الصحفية.ويخلص إلى القول: "نحن أمام مشكلات كثيرة كبيرة معقدة صعبة بالنسبة لفهم تاريخنا، فلنعلن بالصغير والكبير من الأمور، كي نكتب لأنفسنا تاريخاً حرياً بالقراءة – سواء كنا نحن القراء أم كانوا سوانا". و يختم بجمل مهمة: "مازلت أكتب في الموضوعات التاريخية، وأنا أتعلم من أخطائي حتى الآن، ولا ضير علينا أن نستمر في التطور إذا كنا نريد أن نتقدم".

والجدير بالذكر إن علاقتي بهذا المؤرخ الكبير لم تنقطع و لا أدل على ذلك من إهدائه لي كتاب ذكرياته المسمى " أيامي" وبتوقيعه، ومما يحز في نفسي انه كان دائما يتمنى زيارة اليمن وقد لمح لي بذلك مرارا ولسوء الحظ ولقصور اليد لم أتمكن من تحقيق رغبته وكان هناك من هو اقدر مني على عمل ذلك ولم يفعلوا. وداعاً أيها المؤرخ العربي الكبير وتحية وفاء وإجلال من بلاد اليمن ولسان حالنا قول الشاعر الغساني سليل أبناء جفنه حكام بلاد الشام قبل الإسلام:

إما سالت فاتا معشر نجب ألازد نسبتنا والماء غسان

وكان خالد الذكر من هؤلاء القوم ومن سلالتهم

ق ي
٢٠٠٦/٨/٢٦م